لا يصدق. بعد عشرين عاما يقتل «دومة» حسن المعداوى، وكيف؟. أمام عينيه. كأنه ـ فؤاد ـ ما جاء ليتلقى العزاء فى أبيه. بل ليرى المشهد ـ وإن صار معكوسا ـ مرتين.

عشرون عاما شىء لا معنى له حقا إن لم تبدل فى النفوس. .

يدهشه أنه لم يتوقع وجودهما. لم يفكر فيهما. نسيهما كما نسى الناس جميعا هنا. ما الذى جعله يرسل الرسالة اللعينة؟. . . الوالد الكريم. أنا بخير. . عنوانى. . . انقطعت صلتهما منذ. . آه. . .

«يا ولدى كبرت وستتركنى يوما».

كان فى الثالثة عشرة.

«أريد سندا يصون شيخوختى».

هرب. فى نفسه أراد أن يشغل أباه عن الزواج. فقط يشغله. لم يع الفتى الصغير أن السنين، اللص الأكبر فى هذا العالم، كانت مخبأة خلف ثقب يوم هروبه. انفتح فانطلقت كأفراس رهان.

«ماذا جاء بك؟».

قال خاله.

«تزوج أبى أمس» .

«لم يجف دم أمك بعد» .

صرخت زوجة خاله .

«لم يمض على موتها أسبوع» .

نام .

«نعيده فى الصباح» .

«يبقى أسبوعا إذا لم يأت أبوه أعدناه» .

ركض خلف الأسبوع شهر . لحق بالشهر عام أمسكت فى ذيله الخيول . صارت عشرين . .

لحظات نادرة تلك التى تتسع فيها داخل الإنسان موجات حنين صادق . اتسعت به الحجرة فى واحدة منها وتلألأ نورها وبكى . كل شىء من بين يديه تسرب ، ومن أمام عينيه جرى . جفف دموعه وهو يلعن الممثلين الأشرار والمتفرجين العميان . أى جبار هو هذا الزمان المصرى ، الذى يجعل القلوب الصغيرة والكبيرة صلدة صدئة كقلاع الأجداد من العرب والفراعنة . المصريون الذين عرفوا بالحنين والعويل ، المطرقون دائما إلى الأرض فى جلال ، يخرج من بينهم أب وابن ، لا يسأل أحدهما عن الآخر ، عشرون عاما فى هذا الزمان . وابتسم بعد أن كتب الخطاب . لقد لازمه طوال السنين الماضية يقين عجيب بأن أباه أبدىّ العمر . مخلوق ليرى يوم القيامة ، وربما يساعد الملائكة فى جميع عظام الموتى أجمعين . لكن الأب فيما بدا عاش فقط

ليسمع عن ابنه شيئا . سمع فانسحقت الفرصة فى أن يراه . ربما لم يشأ، أو لأن للعيون على العيون عتابا لا تحتمله القلوب .

استقبل فؤاد البرقية التى تعلنه بموت أبيه ردا على خطابه فأيقن أن ما يقال عن النفوس الطيبة حق، تلك التى تتمسك بالحياة طويلا لتحقق أمنية بسيطة كأن تطمئن على حبيب . جميلا كان حزنه بعد أن مزق البرقية، مثل إحساسه الذى لم يفارقه سنوات، بالعدم . ذلك الزورق اللين السابح فى نهر زئبقى لا مع، ينحدر متسللا دون أن يشعر راكبه، إلى قرار ملىء بصوت الريح ولم يكن فى اليوم متسع . لا يجب أن يكون لحزنه جمال من أى مصدر . فليسافر إلى المدينة التى لا يعرف الآن طعم هوائها، ولون فضائها، التى لم ير منها طوال العشرين عاما إلا صورة بائسة، تتكرر فى الصحف كل شتاء، فى يوم عاصف مطير . وتحتها التعليق الأبدى .

«الأمواج وقد ارتفعت حتى تجاوزت سور الكورنيش وعربة الحنطور قلبتها الرياح التى فاقت سرعتها . . . إلخ إلخ» مما يكتب كل عام كذبا وبلا ملل .

شتاء الإسكندرية ليس هكذا أبدا . كان يقول فى السنوات الأولى بعد رحيله . غاضب لكنه جميل واسع . سحبه السوداء ضيف متعجل . فضاؤه يعشق الفضة ويحنو على ضعاف البصر . فى السنوات الأخيرة لم يقل شيئا . لثلاث ساعات فى الديزل فكر كيف سيرى المدينة . لو كان يعرف شعور المولود وهو خارج من الظلام! ولأن الديزل مكيف، لم يشعر بالهواء الذى يتدحرج كالحمام مرحبا، ومرطبا وجوه القادمين، قبل باب المدينة بأكثر من عشرين ميلا . وفى «محطة مصر» أحس ببرودة خريفية منعشة . وصل مع بداية المساء .

لم يصدق أن اليوم من أيام يناير. الصورة كانت دائما فى يناير!. تذكر أن الإسكندرية، تمضى معظم ليالى الشتاء، ساهرة تحت القمر والنجوم. الدفء والأضواء يسطعان عليها من البحر، هكذا كان يشعر وهو يركب الدراجات مع أترابه، يتسابقون فى الليل، مبتعدين عن جنوب المدينة حيث يعيشون إلى شمالها حيث الخلاء والمرح. وفى أكثر مقاهيها الخلفية، يسهر الناس ويضحكون، وصوت أم كلثوم العريض اللامع يسرى فى أركان الفضاء البعيدة متوحدا تأنس إليه القلوب، والشاردون الذين يحسون جميعا، أنها مطربة جريحة تغنى وحدها فى دنيا خئون. ما أكثر ما سمع فى الطرقات، على نواصى الأزقة، وهو عائد فوق الدراجة طائرا يضحك على المتخلفين وراءه، صوتا يلعن الحظ.

وحين استقل تاكسيا تساءل فجأة لماذا لم يفكر فى أبيه فكاد يعود. لابد أن أباه قد دفن. قال. لقد تزوج ولابد أنجب. وإلا كيف مضت السنون. إنه لا يذكر وجه زوجة أبيه. لا يعرف الأولاد. ولا يذكر وجه أبيه نفسه.

- إلى أين؟

قال السائق. لعله لم يدفن بعد. فكر لعله يراه فلا ينساه...

وحين صار التاكسى على الشاطئ الجنوبى لترعة المحمودية ثقل الظلام. عشرون عاما حطمت المصابيح. اهتز التاكسى كثيرا بفعل المطبات والحفر العميقة. رأى على الشاطئ تلالا غريبة من الأخشاب والبراميل أشد سوادا من الليل. قبل هروبه كان الشاطىء خاليا

إلا من عشتين لبعض اللصوص، ومدرستين جديدتين على الجانب الآخر للطريق. أزيلت العشتان بلا شك، فتلال الأخشاب والبراميل عالية عريضة موازية لطول الشاطئ. أما المدرستان فقد ارتفعت أكوام القمامة أمام سورهما فساوته. وحين لاحت له أضواء صفراء مزدحمة أعلنته بموت أبيه، لم يفكر فى العودة، وندم على ذلك فيما بعد.

«أينما تكونوا يدرككم الموت..».

توقف التاكسى وصوت المقرئ الخشن يتسرب إليه من النوافذ المغلقة.

ترك التاكسى ثم تردد فى التقدم. السرادق ممتد أمام البيوت القليلة المتجاورة فى فزع. لو فتش سيجد خطوطه عليها. لو عبرها سيدخل فى الفضاء الواسع، الذى كان يصطاد فيه العصافير ويلعب الكرة. لو دخل حجراتها لشرب وأكل وضحك، وذكرته أكثر من امرأة بأنه أخ لأبنائها فى الرضاعة. لو التفت خلفه سيقذف حجرا يعبر مياه المحمودية إلى الشاطئ الآخر كما كان يفعل متسابقا مع أصحابه. وربما أصاب «مراكبية» مركب محملة بالقطن أو الكسب. ومن فوق سطح منزله ستخترق ظهره أشعة أرسلتها عينا سعاد أجمل الفتيات وأول من لعب معها «العروسة والعريس» لكنه صافح ثلاثة من الرجال قاموا لاستقباله. لم يعرفهم ولم يعرفوه. كاد يقف متحيرا حتى أقبل نحوه عجوز يرتعش.

- عم محمود.

صوته كاد يعود إلى حلقه .

ـ لا حول ولا قوة بالله .

هتف العجوز الذى اندفع إليه فؤاد يحتضنه . لم يكن فى الموقف رجلان يتعرفان على بعضهما بعد طول فراق . ربما كان الأمر كذلك عند العجوز . فؤاد كان يشعر بالخوف . إدراك مبهم سيطر عليه بأن الجالسين فى السرادق سيقومون ويضربونه ضربا قد يؤدى إلى موته ، لذلك كان تشبثه بأحضان الرجل غريبا .

لكن أكثر الجالسين أقبلوا يصافحونه . يعزونه والدموع تطل من أكثر من عين . والأصوات المترحمة على الميت تتداخل كأنها لغط . أفسح له المستقبلون الثلاثة مكانا أمامهم . أنه ابن الميت الجدير بتلقى العزاء . فوق الأريكة العالية تتصدر السرادق كان شيخان . ختم الذى يقرأ تلاوته بسرعة .

كيف تاه أبونا آدم عن أمنا حواء سنينا طويلة . .

تحدث . . .

حكمة الله شاءت أن يلتقيا . . .

اللقاء الأكبر يوم القيامة .

قال . . .

قطار الدنيا هزيل .

قطار الآخرة حق .

هدد وتوعد . . .

الناجون من يدركون عبر الزمان .

وفى نفسه كان فؤاد يتساءل أين إخوته من أبيه؟ هل سيصل الخبر إلى زوجة أبيه؟ كيف سيدور الحديث الليلة؟ أى نوع من العتاب سيكون؟ لكنه فارق السرادق بسرعة بعد الواقعة . بكى حقيقة حين عرف أن زوجة أبيه أنجبت ولدين ماتا خلف بعضهما فلحقت بهما منذ عام . وأن أباه أمضى العام الأخير تبلل دموعه الأرض ، وحين وصله الخطاب قرأه عليه الناس لأنه عمى ، وأبدوا استعدادهم لاصطحابه إليه ـ فؤاد ـ بالقاهرة ، لكن أباه رفض ، وأمضى الليل يضحك والنهار ، فطارت به السعادة الجبارة من فوق الدنيا مفتوح الثغر ، وكانت الوصية سرادقا يليق بمكانة ابنه الذى لابد صار شيئا عظيما ، ودل ـ أبوه ـ الجيران على نقود ادخرها .

كأنه كان يعرف . قال فؤاد فى نفسه وهو يتحسس المائة جنيه ، التى جمعها له زملاؤه فى المكتب ، وساهمت فيها النقابة ، وصندوق الزمالة ، وإدارة الرعاية الاجتماعية .

انتهت القصة المؤثرة بسرعة . ما كان سيحدث لو لم يأت؟ . مط شفتيه وهو لا يدرى . تاق أن تنتهى الليلة . طالت وطالت وطالت وما انتهت إلا بدم .

قتل «دومة» حسن المعداوى فجأة . قام وتقدم ووقف أمامه وصرخ «يا عضو المجلس . . . » وانطلق الدم من العنق إلى سقف السرادق كقذيفة ، فأصاب القريب والبعيد .

لقـد انتظم المعـزون بعـد أن جلس . ارتفع صـوت المقـرئ الثـانى «وسلك» إذ أشعلت فيه المناسبة الحماس . رأى فؤاد أكثر من سيارة مقبلة تقف جميعها بعيدا عن السرادق بمسافة قليلة ، وينزل من أولاها البيضاء الطويلة ، شخص لا تتضح معالمه ، يتقدم الباقين الذين نزلوا من بقية السيارات .

لاحظ أن الذى نزل من السيارة البيضاء يظلع فى مشيته . حين اقترب عرفه فؤاد . إنه حسن المعداوى . صافحه ولم يبد أن حسن قد عرفه بدوره . لم ينتبه فؤاد إلى البدلة الأنيقة التى يرتديها حسن ، ونسى أنه نزل من سيارة طويلة بيضاء .

انشغل بمصافحة بقية الرجال . كان آخرهم «دومة» . عرفه فؤاد ولم يعرفه الآخر أيضا . الذى أدهش فؤاد بحق ، هو أنه ما كاد ينتهى من مصافحة دومة آخر الرجال ، حتى التفت ليرى أكثر من كانوا جالسين واقفين ، ثم بدأوا يجلسون . ازدادت حماسة المقرئ ، ولم يستطع فؤاد أن يمنع نفسه عن ترديد بصره فيما بين حسن ، الذى كان أكثر من رجل يفسح له مكانا ليجلس ، ودومة الذى جلس بعيدا . كهل «حسن» علا جسمه شحم لم يكن أحد ممن عرفوه قديما يتوقعه . ولا يتوقع البدلة السوداء الأنيقة ، التى تحتها صديرى أسود ، وقميص أبيض لامع ، ورباط عنق أسود . كان دائما حافيا ، ممزق الثياب ، مجدور الوجه ضيق العينين . الآن يبدو ناضرا بهناء عجيب . «دومة» ما يزال عريضا ، لكنه صار ناتئ العظام حين مال كل من حسن ودومة يحدث أحد الجالسين ، أدرك أنهما يسألان عنه . وسط التلاوة قام دومة ، وتقدم إلى فؤاد يصافحه مرة أخرى ويحتضنه . يعزيه ويرحب به فى بيته القديم ، ثم ابتسم .

هكذا كان. فتى غير عادى وجهه المستدير سمين بغير ترهل. أنفه أفطس. عيناه مدفونتان. شفتاه غليظتان. مربع الجسد وطويل. لا يعرف أحد من أين اكتسب اسمه الغريب الذى اشتهر به. قالوا دائما أن جسمه القوى، لا يناسب عمره الصغير، إنما هو نتيجة للضرب غير المعقول الذى يلقاه دائما فى البيت والمدرسة وأقسام البوليس. كان صبيا لم يبلغ السادسة عشرة ويستطيع هزيمة عشرة رجال. لم يره أحد إلا فى مشاجرة أو عبث، أو جالسا يحكى حكاية المخبر الذى أغمى عليه، من فرط ضربه فيه - فى دومة - لكن أهل الحى لم يخشوه. لم يكن يسرقهم أو يؤذيهم. يدافع عنهم إذا اقتضى الحال.

حسن لم يفعل مثل دومة. بعد أن همس إليه من يجاوره، عاد برأسه واستند بظهره إلى المقعد. قال شيئا بالتأكيد لأن فؤاد رأى شفتيه تتحركان. أثار الوضع الغريب لكل من حسن ودومة فضول فؤاد. حسن الذى أراد قتل دومة منذ عشرين عاما، يتقدم وخلفه رجال. دومة القوى الجسور يتراجع إلى الذيل. كانا معا يعملان فوق «المعدية» القريبة التى تنقل الناس بين شاطئ ترعة المحمودية. لا يعرف فؤاد ما إذا كانت لا تزال موجودة أم لا. الله، الذى لا يعرف أحد كيف تمضى مشيئته، كثيرا ما يضع سره فى أضعف خلقه. حسن كان أضعف الخلق، ونجح فى بقر بطن دومة بسكين من أجل «وردة». كان غريمه فى حب يائس. هكذا تردد فى الحى. لم يعرف أحد أن فؤاد كان يمضى معها نهارا عريضا فى الليل الضيق. ربما لا يعرف أحد أنه ذهب إلى السرادق الذى أقامه «عم سمسم» ليتلقى العزاء فى ابنته، أجمل مخلوقات الأرض.

«حضور الأطفال للمآتم فأل سيئ» .

قال أبوه الذى يتقبل ـ فؤاد ـ فيه العزاء الآن .

صدقت أمه على الكلام .

ذهب ولم يقل لأحد .

دومة وحسن كانا صامتين شاخصين إلى الأرض . كل منهما لا يكاد يستقر فى جلسته . حسن كان ينكش فى الرمل المفروش بخيزرانه رفيعة ، وكثيرا ما يضرب الأرض بقدميه ويزفر . انصرف دومة وسط القراءة ولم يصافح أحدا . انصرف حسن بعده . فؤاد بعد القراءة . بالقرب من «المعدية» تقدم خائفا وهو يسمع الأنين المتحشرج ، الصادر من عند الشاطئ . وجد دومة غارقا فى الدم .

ظل فؤاد ينظر إلى دومة مرة وإلى حسن مرة . رآهما متوترين . لم يفكر أن الليلة تشبه البارحة كما يقال . مختلف وضعهما الآن . لا يمكن أن توجد بينهما امرأة . لا توجد امرأة مثل وردة التى لابد قد عرفاها أفضل منه . كان صغيرا . لكن ليس كل ما يراه الصغير تمحوه الأيام . . .

فجأة تحط البلاهة فوق الوجوه . الأعرج فى دكانته لا يشترى ولا يبيع . اتهم فى حادث لواط مع صبى فتحول الكون كله إلى ضمير متعنت . دكانة جادو مكتظة بالجالسين للغداء من عمال شركة الملح والصودا . دكانة السيد البرعى . كذلك ، ليس من بين الجالسين من يفكر وقت الجوع هذا فى الجنة ، متعبون ، ولا فى عرائس البحر . صفر الوجوه غائرو العيون ، مشدودون إلى الوراء ، لو سألتهم عما

يشغلهم، لقالوا: هل حقا ستقوم القيامة يوم الثلاثاء كما قال المنجم الهندى؟ ولا ستمروا فى الطعام. سينساهم الله وليس هناك أسعد ممن تقوم القيامة وهو جالس يأكل فى دكانه، لكن وردة تخطر قادمة من ناحية «المعدية». حافية كعادتها ترتدى جلبابها المورد بالأخضر. القصير الكاشف عن ربلتى ساقيها اللدنتين الثقيلتين. تمسك وردة دائما بالجلباب عند جانب فخذها اليسرى، وتثنيه خلفها فيضيق على الردفين والفخذين يجسدهما، تلمع ذراعاها العاريتان تحت ضوء الشمس التى لا يعرف أحد أن أشعتها ترتد إليها منعكسة على اللحم المخملى البارق. لا يدرك هذا إلا الشمس، من طوق الجلباب الواسع يواجه نحر وردة المنحوت، الدنيا بقاعدة مستديرة من النور الخاطف، يطل من بينها لسان عصفور جرىء تحاصره كرتان صغيرتان خطرتان قلقتان. ويحمل النحر المنحوت قمرا ظنه الناس يهجع بالنهار في بلاد العفاريت. لكن ليس للقمر فم وردة. كرزة فوق كرزة استوت إذا فتر ثغرهما كشف عن لؤلؤ جهله الغواصون ردهم الجوع إلى الأحلام، تتبدد مع الصباح المسرع فى بلاهة كأنما يريده حقا أحد. فوق الكرزة العليا ينام الأنف الصغير الساخر تحرسه العينان يطل منهما النهار والليل فى يوم عجيب. يوم تنساه دائما لأنك تراه كل يوم فتشعر كأنه أول مرة. يتعاقب - إذا تعاقب - فلا تكون بلادة ولا ملل. يلمع فوق الجميع الجبين بضوء مبهر، يغطيه الشعر الليلى الثقيل الذى تترك خصلة منه تلمع ظاهرة تحت رباط رأس مغر. بمبى تتدلى من محيطه كرات صغيرة خضراء مدندشة بالترتر الأبيض الصقيل يبعثر أنوار النهار الخائب فيرهقها وهو يلقى بها على الأرض، مترجرجة كبقع الزئبق فى كل ناحية. «الرحمة يا أرحم الراحمين!».